صابقة الأدب العربي لطلبة السنة التوجيهية

« الشوقيات »

للدكتور زكي مبارك

أين مقدمة هيكل باشا ؟ — رأى الدكتور طه حسين في شاعرية « شوقي » — أخلاق شاعر الأخلاق — دسائس صحفية ! — كيف يدرس المتسابقون شعر « شوقي » ؟ — نهج البردة — الأندلس الجديدة — انتحار الطلبة — التغني بالآثار المصرية — الحرب العثمانية اليونانية — تكليل أحمد — انتصار الأتراك في الحرب والسياسة — رحالة الشرق

أين مقدمة هيكل باشا ؟

المقرر للمسابقة هو الجزء الأول من « الشوقيات » ، وبه مقدمة بقلم معالي الدكتور هيكل باشا ، وكان في النية أن أنظر في تلك المقدمة نظرة نقدية ، على نحو ما صنعتُ بالمقدمة التي صدّر بها ديوان البارودي ، ولكني لم أجد المقدمة المنشودة في النسخة التي بين يديّ ، فأين ذهبتْ ؟ وكيف رضيتُ أن تظل نسختي عاطلة من تلك المقدمة العصماء ؟

لذلك تأخر يجب تسجيله قبل أن يضيع ، فقد تأتي أيام تجهل فيها ما صنّ بالشوقيات من ظروف ، والتاريخ الأدبي علينا حقوق ، فما ذنك التاريخ ؟

النسخة التي بيدي ناقصة ، ولكنها نفيسة جدًّا ، لأنها على نقصها مصححة بقلم « شوقي » في مواضع كثيرة ، وليس ذلك بالشيء القليل

وأواجه ذلك التاريخ فأقول :

كانت الصلة قويت بيني وبين « شوقي » في سنة ١٩٢٥ ، وكان شرع في طبع « الشوقيات » ، فشاء لطفه وكرمه أن يدعوني لكتابة المقدمة بعبارة لا أزال أذكر نصها بالحرف : « سيكتب الدكتور هيكل مقدمة تاريخية ، وستكتب أنت مقدمة أدبية »

وبعد أيام تلطّف فأهدى إليّ ما طُبع من الجزء الأول مصححاً بخطه الجميل ، لأكتب في تقديمه ما أريد

ورجعت إلى نفسي فتذكرت أن المقدمات يُلزم فيها الترفق ، وذلك ما يجعل بكاتب مشغول بالنقد الأدبي مع شاعر لا يزال في الميدان ، وأسرعت فكتبت إليه خطاباً قلت فيه : إني لا أستطيع كتابة المقدمة التي ينتظرها أمير الشعراء ، لأني أخشى أن أقول فيها كلاماً يصدني عن نقده إن رأيت في أشعاره المقبلة ما يوجب الانتقاد ، وهو — بارك الله في عمره — لا عن مساورة الشعر والخيال في صباح أو مساء

وفي عصر اليوم الذي كتبت فيه ذلك الخطاب قابلت الدكتور طه حسين وأخبرته بما وقع ، فغضب أشد الغضب وقال : « ليتك استشرتني قبل أن تصنع ما صنعت ! ألا تعرف أنك أضعت على نفسك فرصة من فرص التشريف ؟ لو طلب « شوقي » مني ما طلب منك — وأنا خصمه — لاستجبت بلا تردد ، فشوقي في رأيي هو أعظم شاعر عرفته اللغة العربية بعد المتنبي »

وبعد شهور طوال ظهر الجزء الأول من « الشوقيات » ، — وبه مقدمة الدكتور هيكل ، ونادى المنادي بوجوب الاحتفال بتكريم أمير الشعراء احتفالاً يشترك فيه من يستطيع من أدباء الأمم العربية ، وبرعاية الزعيم سعد زغلول

ثم يقام الحفل الحافل بدار الأوبرا الملكية في التاسع والعشرين من نيسان سنة ١٩٢٧ ، ويقول الشعراء والخطباء في « شوقي » ما يقولون بإطناب وإسهاب

ويلتفت الدكتور هيكل كاتب مقدمة « الشوقيات » فيرى من الواجب إصدار عدد خاص من (السياسة الأسبوعية) لتكريم « شوقي » ، ويُدعى للاشتراك في تحرير ذلك العدد الخاص رجال كان فيهم كاتب هذا الحديث . ويرى « شوقي » من حقه أن ينظر في محتويات ذلك العدد فيشير بحذف مقالات كان منها مقالي ... ألم أستكبر عليه فأرفض كتابة مقدمة « الشوقيات » ؟ !

كانت (السياسة الأسبوعية) في تلك الأيام توجه التيار الأدبي في مصر وفي سائر البلاد العربية ، وكان إصدار عدد خاص عن شاعر من مثل تلك المجلة يعد تزكية أدبية تفوق الوصف ؛ ولكن « شوقي » لم يرتح كل الارتياح إلى ذلك العدد الخاص ، فقد ظهرت فيه عبارات تغض كثيراً أو قليلاً من مقام أمير الشعراء

أفعوى شاعر الأفعوى[1]

غضب « شوقى » على ذلك العدد من (السياسة الأسبوعية) وكان « شوقى » إذا غضب غضب معه ألف مرتزق من أدعياء الأدب ، فمضى أولئك المرتزقة يقولون فى الدكتور هيكل ما تسمح بنشره الوريقات المتسمة زوراً بوسم الجرائد والمجلات ، فكتب الدكتور هيكل فى (السياسة الأسبوعية) مقاله المأثور : « أخلاق شاعر الأخلاق » ، وهو مقال فصّل فيه ما كان بينه وبين « شوقى » وتوعّده توعداً أليماً ، فقد نص على أن « شوقى » لن يظفر منه مرة ثانية بمثل ذلك الاحتفال !!!

ورأيت أن أرجع إلى الدكتور طه أستفتيه ، فابتسم وقال : كان مصيرك سيكون أفظع من مصير هيكل لو كتبت مقدمة « الشوقيات » !!!

ثم ماذا ؟ ثم ذهب « شوقى » الحقود ، « شوقى » الذى قطع ما بينه وبين كرام الرجال لأسباب لا تستحق أن يُنصب لها ميزان ، وبقى « شوقى » الشاعر ، « شوقى » الذى رثاه « المازنى » يوم مات ، بعد أن قال فيه ما قال !

دسائس صحفية

فعد ما بينى وبين شوقى بعد اعتذارى عن كتابة مقدمة الشوقيات ، فانقطعتُ عن لقائه بمكتبه فى شارع جلال ، وانقطع هو أيضاً فلم يعد يسأل عنى . وجاء طاغور أمير شعراء الهند فأقام له حفلة فى داره دعا إليها أساتذة الجامعة المصرية ، ولكنه تجاهل اسمى فلم يدعنى إلى استقبال ذلك الشاعر الصنّاج .

وسعى بذلك الحادث جماعة من الصحفيين حرّضونى على إيذاء شوقى بمقال أو مقالين ، وزعموا أن مال شوقى لا ينال بغير الهجاء !

وما أنا ومال شوقى أو غير شوقى !

هل منحنا الله نعمة القلم الصوّال ، لنبتزّ الأموال !

إن شوقى الحقود حرمنى فرصة التمتع بصوت طاغور ، وما صوت طاغور بالقياس إلى الموسيقية الشوقية ؟

شوقى شاعر مصر ، وهو على جحوده أستاذ الأساتذة فى ميدان القصيد ، فمن الواجب أن أحفظ عهده إلى أن يموت ، وقد مات قبل أن يسمع كلمة نابية من قلمى أو لسانى .

فعليك يا شاعرنا العظيم ألف تحية وألف سلام ! وحفظ الله عهدك بين أقطاب الأدب الرفيع !

كيف يدرس المتسابقون شعر شوقى

الغرض من هذه الدراسات هو توجيه من سيتبارَوْن فى مسابقة الأدب العربى ، فماذا نقول فى توجيه أولئك الشبان ؟

أهم قصيدة فى الجزء الأول من الشوقيات هى قصيدة «نهج البردة» . ولهذه القصيدة تاريخ يجدونه فى الطبعة الثانية من كتاب « الموازنة بين الشعراء » ، وما أريد أن أغتنم الفرصة فأعلن عن كتابى فى مجلة الرسالة بالمجان ، وإنما هى فرصة للطلبة الأعزاء ، فإن درسوا ما كتبتُ عن تلك القصيدة فى ذلك الكتاب فسيشغلون لجنة الامتحان بأبحاث تجوز بهم الصراط فى أمان .

وهنالك مرجع ينفعهم فى هذا الموضوع الدقيق ، وهو كتاب « المدائح النبوية فى الأدب العربى » ، وفى ذلك الكتاب تفصيل واف لتطور المدائح النبوية من عهد حسّان إلى عهد شوقى ، فقد بدأ هذا الفن مدحاً خالصاً ، ثم تحوّل إلى نزعة من « التشيّع » ثم صار فنّاً بلاغيًّا يسجل فنون « علم البديع » ثم عاد مدحاً صرفاً على لسان البارودى وشوقى والحلاوى ، مع تفاوت فى أسلوب الأداء[1] .

أما القصيدة الثانية فهى « الأندلس الجديدة » ، ويجب حفظها عن ظهر قلب ، لأنها من محفوظات لجنة الامتحان ، ولأنها فيما نعتقد أعظم قصيدة جاد بها الشعر الحديث فى تصوير التعاطف بين الأمم الإسلامية :

مقدونيا ـ والمسلمون عشيرةٌ ـ كيف الخؤولة فيكِ والأعمامُ
أنّى يَنُمّهم هانوا ، وكان بهزم وعُلوُّهم يتخايلُ الإسلام
إذ أنت رَبّ الليث ، كل كتيبة ظلتْ عليك فريسةٌ وطعامُ

وقد سما شوقى بهذه القصيدة سموًّا لا يدرك مداه غير من يعرف أسرار الشعر وسرائر القلوب .

ولهذه القصيدة أهمية فى تأريخ شاعرية شوقى ، فقد كادت آراء النقاد تجمع على أن عبقرية شوقى لم تتفتح إلا بعد نفيه فى أيام الحرب الماضية ، وهو قد نظم هذه القصيدة فى سنة ١٩١٢ قبل النفى بأعوام .

(١) عنوان مقال الدكتور هيكل باشا

(١) أنظر همزية شوقى فى مدح الرسول ولاحظ تأثره بهمزية البوصيرى

ثم تجيء قصيدة « انتحار الطلبة » وهي قصيدة طُوِّقت بها وزارة المعارف بأطواق من حديد ، فالطالب المنتحر :

ماشيء في الورد من أيامه حَسْبُهُ الله أبالورد عَثَرْ ؟
سدد السهم إلى صدر الصبا ورماه في حواشيه الشُرَر
بيد لا تعرف الشر ولا خُلِقَتْ إلا لتلهو بالأُكر

ولكن كيف صنع الطالب بنفسه ذلك الصنع الممقوت ؟

قال ناسٌ : صرعةٌ من قَدَر وقديماً ظلمَ الناسُ القَدَرْ
ويقول الطبُّ : بل من جِنَّةٍ ورأيت العقل في الناس نَدَرْ
ويقولون : جفاه راعَهُ من أبٍ أغلظَ قلباً من حجر
وامتحانٌ صَبَّتْه وطأةٌ شدَّها في العلم أستاذٌ نَكِر
لا أرى إلا نظاماً فاسداً فكك العلم وأودى بالأُسر
من ضحاياهُ ـ وما أكثرها ! ـ ذلك المكاره في غض العُمُر

وتلك قصيدة نادرة ، فليتفهمها الطلبة وليحفظوها عن ظهر قلب ، فموضوعها يكاد يتجدد في كل يوم ، وهي تنعى عن آفة من آفات الضعف في هذا الجيل .

التغني بالآثار المصرية :

فاتحة الشوقيات هي قصيدة شوقي عن « كبار الحوادث في وادي النيل » وهذه القصيدة تصحح غلطة وقع فيها صاحب « الموازنة بين الشعراء » فقد نص على أن اسماعيل صبري هو أول شاعر سن مذاهب القول في وصف آثار الفراعين ، بعد أن ثار الجدال بينه وبين خليل مطران في سنة ١٩٠٤ ، ثم تشاء المقادير أن يعرف ذلك المؤلف أن شوقي سبق صبري في التغني بتلك الآثار الخوالد في القصيد الذي ألقاه في مؤتمر المستشرقين سنة ١٨٩٤

فما ذلك القصيد ؟ هو قصيد طويل سجل به الشاعر ما كان لمصر من تحليق وإسفاف في أعوام تزيد على خمسة آلاف .

وهنا يظهر العجب العجاب ، فقد كان شوقي ناشئاً يوم نظم ذلك التاريخ ، ولكنه مع ذلك عرف كيف يقف :

قل لبانٍ بنى فشادَ فقالى لم يجز مصرَ في الزمان بناء
ليس في الممكنات أن تُنقل الأجـبال شماً وأن تنال السماء
أجفل الجنُّ من عزائم فرعو نَ ودانت لبأسها الآناء
شاد ما لم يشد زمان ولا أنشـأ عصرٌ ولا بَنَى بُنَّـاء
هيكلٌ تُنثر الديَّاناتُ فيه فهي والناسُ والقرونُ هباء
وقبورٌ تحط فيها الليالي ويوارى الإصباحُ والإمساء

وهذه الباكورة كانت البشير بأن ستكون لشوقي مكانة في وصف آثار الفراعين

لقد طوفت بأقطار كثيرة من الشرق والغرب ، فما رأت عيني مثل ما ترك الفراعين بوادي النيل ، وسيجتمع المؤتمر الطبي العربي بعد أيام بمدينة أسوان ، وسيعرف رجاله صدق هذا المقال بعد أن يزوروا آثار الأقصر ، عليها أزكى التحيات !

الحرب العثمانية اليونانية

هي حربٌ وقعت في عهد السلطان عبد الحميد ، ولم يذكر الديوان تاريخها بالضبط ، ولا اتسع وقتي لتحقيق ذلك التاريخ ، وأين من يصدق أني أكتب هذه الصفحات وأنا في « قطار الصعيد » ؟

هي إحدى قصيدتين اعترف فيهما حافظ بشاعرية شوقي ، ولم يكن حافظ يعترف لشوقي بشيء ، ولا كان شوقي يعترف لحافظ بشيء ، وآه ثم آه من تحاسد الشعراء !

إعترف حافظ بقيمة البائية :

بسيفك يعلو الحق والحق أغلب ويُنصرُ دين الله أيان تضرب

إعترف حافظ بقيمة هذه البائية في كتاب « ليالي سطيح » ولا أعرف الآن موقع هذا الاعتراف من ذلك الكتاب ، فمهدي بقراءته يرجع إلى زمن بعيد

أما القصيدة الثانية فهي بائية شوقي في « توت عنخ آمون » وكان حافظ يحفظ هذه البائية وقد أنشدنيها مرات ، وكان له في إنشادها ترجيع طريف

كانت البائية الأولى فتنة العصر الذي ظهرت فيه ، وكان جمهور الأدباء يحفظها عن ظهر قلب ، وراويها في هذا اليوم هو الأستاذ محمد سعيد لطفي بك ، وله بها هيام وغرام ، فهو ينشدها كلما لاحت فرصة للحديث عن شوقي

إقرأوا هذه البائية ، يا شباب اليوم ، لتعرفوا كيف نستهين بما ينظم الأطفال من الشعر في هذه السنين العجاف !

إقرأوا هذه البائية واحفظوها ، فهي من آيات الشعر الحديث وما السيف إلا آية الملك في الورى

ولا الأمرُ إلا الذي يَتغلبُ

فأدِّب به القوم الطغاة فإنه لنعم المربي الطغاة المؤدب

تنام خطوبُ الملك إن بات ساهراً

وإن هو نام استيقظت تتأب

تطليل أنقرة وعزل الآستانة

تلك قصيدة كافية تسجل انحسار الخلافة عن استامبول ، بعد حوادث تشيب ناصية التاريخ ، وتصور عزة الترك بأنقرة في عهدهم الجديد

وفي هذه القصيدة توجع شوقي لعزل استامبول ، واعتذر عن أبنائها الأماجد ، فما نقلوا مركز الملك إلى أنقرة إلا رعاية لخطة من خطط الدفاع عن البلاد

لو أن سلطان الجمال مخلد ... لليعملات من عزلوك
خلعوك من سلطانهم فسليهم ... أمن القلوب وملكها خلعوك
لا يحزنك من محاتك خطة ... كانت هي المثلى وإن ساءوك
أيقال فتيان الحمى بك قصروا ... أم ضيعوا الحرمات أم خانوك ؟
وهم الخفاف إليك كالأنصار إذ ... قل النصير وعز من يفديك
والمشتروك بدمائهم ... حين الشيوخ بجبة باعوك
هدروا دماء القائدين عن الحمى ... بلسان مفتي النار لا مفتيك
شربوا على سر العدو وغردوا ... كالبوم خلف جدارك المدكوك
لو كنت مكة عندهم لرأيتهم ... كمحمد ورفيقه هجروك

وهو يشير في هذه الأبيات إلى ما وقع من رجال الدين في استامبول ، فقد أفتوا بوجوب مقاتلة الكماليين طاعة للحلفاء ، وكانوا احتلوا استامبول ، ولم يجلوا عنها بعد ذلك طائعين ، وإنما أكرههم السيوف الكمالية على الجلاء

والشاعر يجعل انتقال أتاتورك ورفاقه من استامبول إلى أنقرة شبيهاً بانتقال الرسول ورفيقه من مكة إلى المدينة ، وهو تشبيه على جانب من الجمال

انتصار الأتراك في الحرب والسياسة

ثم يلتفت القارئ مرة ثانية فيرى شوقي يرجع إلى تمجيد أتاتورك من جديد ، بقصيدة بائية على غرار بائية أبي تمام في فتح عمورية ، وقد تلاعب فيها بالمعاني وجال في فنون القول كل مجال

كان عصمت باشا مندوب الأتراك في مؤتمر لوزان ، وكان رجلاً ضعيف السمع لا يصل إليه الصوت إلا بالصياح ، فجعله شوقي :

أصم يسمع سر الكائدين له ... ولا يضيق بجهر الحنق الصخب

والذي يقرأ أخبار الحرب في هذه الأيام يرى الانسحاب يوصف بالجمال ، وقد سبق شوقي لغة هذه الأيام فقال في انسحاب اليونان :

جد الفرار فألقى كل معتقل ... قنانه وتخلى كل معتقب
يا حسن ما انسحبوا في منطق عجب ... تدعى الهزيمة فيه حسن منسحب

وكان ساسة اليونان منوا شعبهم بمملكة جديدة في بلاد الترك ، فقال شوقي :

هم حسنوا للسواد البله مملكة ... من لبدة الليث أو من غيله الأشب
وأنشأوا نزهة للجيش قاتلة ... ومن تنزه في الآجام لم يؤب

وكان الدكتور طه حسين كتب مقالاً في جريدة الاتحاد أراد به التهوين من شأن هذه البائية ، فهل ينظر فيها من جديد ليعرف أنه كان من المخطئين ؟

رحلة الشرق

وهذه قصيدة عينية قالها شوقي في تكريم الرحالة محمد حسنين باشا ، وكان استكشف واحتفى في الصحراء الغربية ، ويضيق المقام عن شرح ما في هذه القصيدة من أغراض ، ومع هذا لا يفوتني أن أدل الطلبة على سجية شوقي في الجنوح إلى التأمل العميق من حين إلى حين . وهل وازن أحد بين الصحراء والحياة على نحو ما وازن بينهما شوقي إذ يقول :

كم في الحياة من الصحراء من شبه ... كلتاهما في مفاجاة الفتى شرع
وراء كل سبيل فيهما قدر ... لا تعلم النفس ما يأتي وما يدع
فلست تدري وإن كنت الحريص متى ... تهب ريحاها أو يطلع الصبع
ولست تأمن عند الصحو فاجئة ... من العواصف فيها الخوف والملع
ولست تدري وإن قدرت مجتهداً ... متى تحط رحالاً أو متى تضع
ولست تملك من أمر الدليل سوى ... أن الدليل وإن أرداك متبع

والبيت الأخير من وثبات الخيال

* * *

أما بعد فهذه كلمات سريعة بددت بها ساعات من الطريق بين القاهرة و « المنية » ولن أنظر فيها بعد ذلك ، فليتلقها القارئ على هواه ، بالحمد أو باللام ، وهل يكلف الله نفساً فوق ما تستطيع ؟

أثنيتُ على شوقي مرات وأنا أراجع الشوقيات ؛ ثم لمتُه مرة أو مرتين !

لقد أشرف بنفسه على طبع الجزء الأول والثاني ، فما كان ضرّه لو أرّخ جميع القصائد ، ونصّ على جميع المناسبات ليتمثل القارئ صور البواعث الروحية أو السياسية ؟

قصائد شوقي تمثل معضلات عصره أصدق تمثيل ، ولكن القراء لن يروها خليقة بهذا الوصف إلا إذا شُرحتْ مناسباتها بإسهاب ، فأين من ينهض بهذا الواجب قبل أن تنسى تلك المناسبات ؟

ثم أقول إن الشوقيات زادت إعجابي بمجد بلادي ، فقد امتطيت القطار وأنا متخوّف من ضجر الطريق ، وما هي إلا لحظة حتى كانت الشوقيات وحياً يهتف بأن كل بقعة من أرض مصر معهد مجد أو محراب فتون

ليت شعري والدهر حرب بنيه وأياديه عندهم أفياء
ما الذي داخلَ الليالي منا في صبانا ولياليَ دهاء

في هذه اللحظة أشعر بالندم على أني ركبت القطار السريع ، ولم أركب القطار « القشّاش » ، وهو القطار الذي يقف على جميع المحطات ، ويباع فيه القصب والبرتقال بسخاء ؟ !

وما أسعد من يمر بالقطار على جميع المحطات المصرية ، وقد بلغ عددها (٥٣٢)

يمر القطار السريع على قرى الصعيد مرور الطيف ، فلا يكاد المسافر يتذكر أن كل قرية من تلك القرى فيها أرواح وقلوب ، ولأهليها تاريخ أو تواريخ

هذه منارة تدل على مسجد ، فأين من يذكر أن مساجد الصعيد كانت لما أياد بيض في حفظ العلوم الإسلامية ؟

وذلك فلاح يناجي الأرض مناجاة الحبيب للحبيب ، فأين من يذكر أن الفلاح المصري قد يكون أخوف الناس من الله ، ثم لا تمنعه تقواه من انتهاب شبر أو فتر من أرض الجيران ؟

وهل يستطيع أحدٌ أن يقنع الفلاح المصري بأن الجنة أجل من أرضه الغالية ؟

ذنبُك مغفور — أيها الفلاح — فاعص الله كيف شئت في انتهاب أرض جيرانك ، فذلك شاهد بأنك تقدر نعمة الله على أهل هذه البلاد !

ثم ماذا ؟ ثم أذكر أن هذا الكلام يخرج حتى سوضوع هذا المقال ، وأني سأصل إلى « المنية » بعد لحظات ، وأن التمادي في الثرثرة أمرٌ غير مقبول !

وما ذنبي إذا فتنتني بلادي ؟

أمِن الإثم هُتافي بالجمال في بلادٍ كلُّ ما فيها جميلْ
لو بعيني نظر اللاحي وجال لرأى الفتنة في كل سبيل

حار الناس في تعليل التفاوت بين شوقي وحافظ ، لعرفانهم — بأن حافظ كان أذكى من شوقي بمراحل طوال ، فهل آن لهم أن يعرفوا أن شوقي تقدم لأنه كان من أكابر المُلاّك في هذه البلاد ، وأن حافظ تخلّف لأنه بشهادة نفسه لم يملك من أرض مصر نصف فدان ؟

ما أنا وهذا الكلام ؟ هذه ثرثرة لا تليق برجل منّ الله عليه بركوب قطار الصعيد ، وهو قطار يساير نهراً بين جبلين ، وذلك حال توحي بإعزاز السرعة والقسوة واللين ، ومن هذه العناصر الثلاثة يتكون جسر الخلاص ؟

أحبك — يا وطني — أحبك أحبك بأعظم مما أحبك مصطفى كامل ومحمد فريد وسعد زغلول

أحبك — يا وطني — وأستعذب عذابي فيك ، لأنك في عيني وقلبي غاية في روعة الجمال

لم يُعان أحدٌ من الظلم في وطنه مثل ما عانيت ، فما زادني ذلك الظلم الأثيم إلا عرفاناً بجمال وطني . وهل رأيتم جميلاً غير ظلام ؟ ؟

(قطار الصعيد في ١٧/١٢/٤١) زكي مبارك

ظهر حديثاً

فندق الدانوب

لمحمود البدوي

ويطلب من مكتبة النهضة المصرية بشارع عدلي باشا
ومن المؤلف — ١٩ شارع محمد سالم — منيل الروضة
وثمنه خمسة قروش